توظيف «الحركة النسوية» للتصـوف النسـائي

د. طارق الحمودي - المغرب

التصوف النسائي

كان السلمي قد وضع كتابا في تاريخ رجال التصوف، وطبع الكتاب، وطبعت معه رسالة أخرى خاصة بالنساء بعنوان: «**ذكر العابدات**»، وكانت أولاهن رابعة، أم عمرو بنت إسماعيل العتكية العدوية البصرية (ت ١٣٥ أو ١٨٠هـ)، فهي تعد «المثال» النسائي الأظهر والأحرى بالاهتمام، وقد ألَّف في ترجمتها جزءا مفردا ابنُ الجوزي، ثم تلقفت الروايات والحكايات عنها الأيادي الاستشراقية تقلبها بحثا عن «**معاقد التوظيف**»، فكتبت مارغريت سميث كتابا بعنوان:Muslim women mystics[1]، ثم كتبت آن ماري شيمل «**روحي أنثى**»، وخصَّت التصوفَ النسائي بفصل، دار جلّه حول رابعة، وكان من أغراض ذلك تقديم «**نموذج ليبرالي علماني**» مختلف للمرأة في الإسلام، يدافَع به «**النموذج الإسلامي السلفي**»، ولذلك تخفف الباحثون المستشرقون من جل القيود العلمية، لكي يجدوا فسحة للترويج لمشروع «**التمرد**» على «**الوحي والشرع**»، فاستعملوا لأجل ذلك كل الروايات الخادمة لمقاصدهم التي استطاعوا الوقوف عليها في كتب التراث، دون تثبت ولا مراجعة!

العدوية ... والصورة المشوهة

إن من أشد ما يواجه المستشرقين وهم يحاولون التقاط الروايات التاريخية والمقالات، واستثارة الجوانب الوظيفية فيها، أن المنهج الذي رويت به هذه الروايات، وجمعت وصنفت، منهج يعتمد على النقد المركب من نقد خارجي متعلق بالإسناد، ونقد داخلي متعلق بالمضمون، ولم يجد المستشرقون، لعدم أهليتهم في ذلك، ولعدم مناسبته لمقاصدهم، إلا أن يتخطوا كل ذلك في محاولة للتدليس، ومع ذلك فقد اعترفوا بأنهم كانوا دائما أمام كمية من الأساطير والروايات الخرافية، فاستعملوها بلؤم، فلم يكن لهم من سبيل إلا ذلك، ومنه أنه ينسب إليها أقوال ربما

١- « Muslim women mystics : the life and work of Rábi'a and other women mystics in IslámMuslim women mystics the life and work of Rábi'a and other women mystics in Islám»-2001-oneworld.

هي لغيرها مثل: «**أستغفر الله من قلة صدقي في قولي: أستغفر الله**»، فقد نسبها المؤرخ المحقق الذهبي إلى رابعة الشامية، وقال: «**قد تدخل حكايات هذه في حكايات هذه**»[٢]، وليت الأمر وقف هنا، فإن هذا الموضع مظنة التدسيس والتدليس، خاصة من دعاة الزندقة والإباحية.

من العبارات العجيبة في هذا، قول آن ماري شيمل: «**نسج حول رابعة البصرية الأمة المعتوقة ما لا يعد من النوادر**»[٣]، والمستنكر أنها هي نفسها تنقل بغير تثبت عن العطار وعن قطب الدين بختيار الهندي من متصوفة القرن الثالث عشر الميلادي! وهذه «**الخرافية**» في الرواية هي ما نبّه عليه من ألف فيها من الباحثين المسلمين، مثل مأمون غريب القائل: «**وجدت أن سيرتها مليئة بالأساطير والخرافات التي وضعها الناس عليها**»[٤]، وقال: «**والمتابع لحياة رابعة العدوية من خلال كتب التراث يرى فيها تناقضات لا تستقيم مع المنطق**»[٥]، ومن المستنكر أن الدكتور عبد الرحمن بدوي ألّف في رابعة كتابه «**شهيدة العشق الإلهي**»، ولم يُعمِل أثناء «**التقميش**» في الروايات منهج «التفتيش» والتبين القرآني، فبنى كل قراءته وتحليله على روايات مشكوك في صحتها، بل مجزوم بوضعها، وهو الأمر الذي جعل عبد المنعم حنفي يقول: «**شخصية أسطورية يختلط فيها الخيال بالواقع، فهل يكون هذا الكتاب الرائع للدكتور عبد الرحمن بدوي أيضا كتابا قد اختلط فيه الخيال بالواقع؟ سنرى**»[٦]، وقد رأيت، ووجدت ذلك.

ما الذي كانوا يبحثون عنه؟

إن الناظر فيما روي عن رابعة العدوية يجده أرضا خصيبة للتوظيف «**الباطني**» من كل وجه، فقد روي عنها ما يؤول فيه المعنى إلى القول «**بالحلول**» و«**وحدة الوجود**»، وما يؤول إلى «**الإباحية**» و«**التحرر من قيد الشريعة**»، وهذان جامعان للمقاصد الكبرى للباطنية، الكفر بالله والتحلل من الشريعة، من ذلك أنه روي عنها أنها قالت:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسدي من أراد جلوسي

وقد أنكر الذهبي أن يكون هذا من قولها، ففي الشطر الأول حلول وفي الثاني إباحية[٧]، وأما عند «**الموظفين**»، سواء كانوا من المتصوفة كما فعل مكي بن أبي طالب[٨] وصدر الدين القونوي[٩]، أو المستشرقة أو المستغربة، فإن هذين البيتين وغيرهما من أفضل ما قالته! وعليه وعلى أمثاله مما نسب إليها بَنَتْ مارغريث سميث دعواها غنوصية رابعة العدوية، ونسَبَتْها إلى القول بالحلول والفناء الذاتي[١٠].

ومن الروايات «**الموظفة**» أيضا أنه قيل لها: بمَ أدركت هذا المقام؟ قالت: «**بأن تركت المدركاتِ كلَّها، وضيعتها في وجوده**»[١١]، فهذا واضح صريح في القول بوحدة الوجود، ومنها أن الحسن البصري رحمه الله قال: «**كنت عند رابعة يوما وليلة، وكنا نتحدث في الطريقة والحقيقة، ولا يخطر ببالي أني رجل، ولا ببالها أنها امرأة**»[١٢]، وهذا فتح لباب الاستهانة بخلوة الرجل بالمرأة، ولأمر ما نقله عنها فريد الدين العطار المتصوف الوحدوي في تذكرته! ومثل هذا أن أبا سليمان الداراني قال: «**بتّ ليلة عند رابعة، فقامت إلى محراب لها، وقمت أنا إلى ناحية من البيت، فلم تزل قائمة إلى السحر**»! وهذا مما تتهم به بعض الطرق الصوفية الوحدوية ذات الأصل الفارسي والتركي، فكيف يجوز لصوفي أن يبيت عند صوفية، يراها قائمة ساجدة! إن هذا إلا كذب.

هناك روايات أخرى مثلها، استخلصها عبد الرحمن بدوي، مثل قول رابعة إن الكعبة صنم معبود في الأرض، بل قالت غادة المقدم: «**نال الحج في التصوف معاني رمزية، بل إن بعض الصوفيين تجاوزوا تلك الفريضة وعدّوها شكلية، فقد اعتبرته رابعة العدوية رمزيا، إذ قالت عن الكعبة:**

٢- سير أعلام النبلاء، ٢٤٣/٨، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الرسالة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٣ - روحي أنثى، ص ٦٤، ترجمة لميس فايد، الكتب خان، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

٤ - رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي، ص٦، دار غريب، ٢٠٠٠م.

٥ - المصدر نفسه، ص ٣٤.

٦ - رابعة العدوية إمام العاشقين، ص ١٢، دار الرشاد، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م. وهو للأسف لا يوثق بالصفحة، فيحيل إلى الكتاب فقط!

٧- سير أعلام النبلاء، ٢٧٤/٧.

٨ -قوت القلوب، ٩٣/٢، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٩ - «إعجاز البيان في تفسير أم القرآن، ص ٢٢٣، تصحيح جلال الدين الآشتياني، بستان كتاب في قم الإيرانية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٠ - ص ١١٣.

١١ - تذكرة الأولياء، ص ١٠٣، ترجمة محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي ت ٨٣٦هـ، تحقيق محمد أديب الجادر.

١٢ -المصدر نفسه، ص ١٠٢.

ذلك الصنم المعبود في الأرض»[١٣]، وأما عبد الرحمن بدوي فخلص بعد النظر فيها إلى إثارة أمر خطير جدا، وهو أن رابعة ربما تأثرت بالدعوات الزندقية التي كانت منتشرة في زمانها، فتسرب ذلك إلى فكرها وظهر على فعلها وأقوالها، فقال: «**فرض نسوقه ولا نستطيع تحقيقه بيقين، لكننا لا نرى مانعا جديا في أن تكون قد تأثرت بتلك الأفكار التي أثارتها حركة الزندقة**»[١٤]، وبعيدا عن دعواه، من كان في مصلحته نشر هذه الروايات عن رابعة ؟ فما قاله عبد الرحمن بدوي دليل على أن جهة ما كانت تريد أن توهم الناس أن رابعة تقول بذلك، ليستطيعوا تسريب مقالاتهم عن طريق عملية «**النسبة الموهمة**»!

ومع طريقة «**النسبة الموهمة**» هناك تغافل غريب عن مرويات أخرى تنقض مقاصد الموظفين، وهي طريقة «**الإهمال والإغفال**» لما يعد «**على**» الموظّفين لا «**لهم**»، مما يعرض صورة مطابقة لما ينبغي عليه أن تكون امرأة عابدة تقصد تحقيق التقوى وتدعو إليها، ومن ذلك ما رواه الخطيب البغدادي عن سري السقطي، قال: «**قالت امرأة لرابعة: إني أحبك في الله، فقالت لها: فأطيعي من أحببتيني له**»[١٥].

مؤتمر للتصوف النسوي

سيسجل في التاريخ أن أول مؤتمر للنسوية الصوفية عقد في العالم كان في المغرب عام ٢٠٢٦م، وأن تنظيمه كان بالتشارك بين أكاديمية المملكة المغربية وجمعية صوفية نسائية فرنسية اسمها: waliat ong international ، كان ذلك بالتفصيل في ١٠و٢٠٢٦/٠٦/١١ في الرباط.

والمثير في هذا أن الجمعية النسائية الصوفية فرنسية الأصل، مسجلة عام ٢٠٢٥م في لائحة الجمعيات الفرنسية تحت رقم: RNA W751280445، ورئيستها امرأة تنتمي لطريقة صوفية على أصول جلال الدين الرومي، اسمها كارول لطيفة أمير، متحررة من لباس الشريعة الذي أمرت به في كتاب الله تعالى، ومع زميلاتها، وقد هرعت جهات وشخصيات «**نسوية**» مغربية لمؤازرة هذه الجمعية والحرص على الظهور على المنصات، والعجيب أن في المتدخلات نسوة علمانيات قمن يتحدثن بلغة التصوف والروحانية.

في عام ٢٠١٩م أقيم في المغرب مهرجان فاس للثقافة الصوفية، وكان الختم بعروض فنية تحت الإدارة الفنية لكارول لطيفة أمير أيضا، غنيت فيها مقاطع شعرية لابن الفارض والحلاج وابن العربي الحاتمي والعطار... ورابعة العدوية، وسبق لها أن أشرفت أيضا على ليلة موسيقية صوفية في باريس في ماي ٢٠٢٢م بالتعاون مع معهد ثقافات الإسلام الذي ترأسه بارزة خيري، نائبة الرئيس السابقة لمجلس الشيوخ الفرنسي، ودار ثقافات العالم الذي يرأسه شريف خازندار! إحدى حفيدات جلال الدين الرومي Esin Çelebi Bayru، التي قالت: «**رسالة النساء الصوفيات تعني الكثير للإنسانية**»[١٦]، وHaji Syed Salman Chishty رئيس مؤسسة «**جشتية**» التي يذكر أن كارول تنتمي إليها!

المقاصد النسوية

إن كان من عبارة تجمع مقاصد «**النسوية**» فلعل أنسبها أن يقال: «**التمرد على الله بالتمرد على الرجل**»، والمقصود بالرجل هنا «**الزوج**» و «**الأب**» ومن ناب عنهما نيابة شرعية، فشياطين النسوية يعلمون أن الدعوة إلى التمرد على الرجل إن هي إلا ذريعة للتمرد على الله تعالى وعلى أنبيائه وشرعه، فولاية الرجل وقوامته عليها صادرة من كل ذلك، فيعد الرجل عند النسوية رمزا لحاكمية الوحي والشريعة، ويعد التحرر من الوصاية الشرعية والأخلاقية والطبيعية للزوج على زوجته والأب على ابنته عن التحقيق تحررا من «**الله**» تعالى، أو الوسيلة العظمى لذلك.

هذا مدخل لما يمكن أن يصير حالة رصد لهذا «**التوظيف**» للتراث النسائي الصوفي عن طريق «**النسبة الموهمة**»، جعلت فيه رابعة العدوية مثالا كاشفا، وحينما يكون هذا التوظيف على يد «النسوية» العلمانية فإن الأمر يوجب متابعة عن قرب وبطريقة أعمق، فإن القوم يتواصون به، وما خفي أعظم.

---

١٣ - مقدمة غادة المقدم على كتاب صفوة التصوف لابن القيسراني، ص ١١٢، دار المنتخب العربي.

١٤ - شهيدة العشق الإلهي، ص ٨٥، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٢م.

١٥ - الزهد والرقائق للخطيب البغدادي، ص ١٠٦ و١٠٧، رقم: ٧٩، المحب لله هو الذي يطيعه، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٦ - REVU de presse de la quinzième édition du festival de Fès de la Culture Soufie 2002 ; p :3.

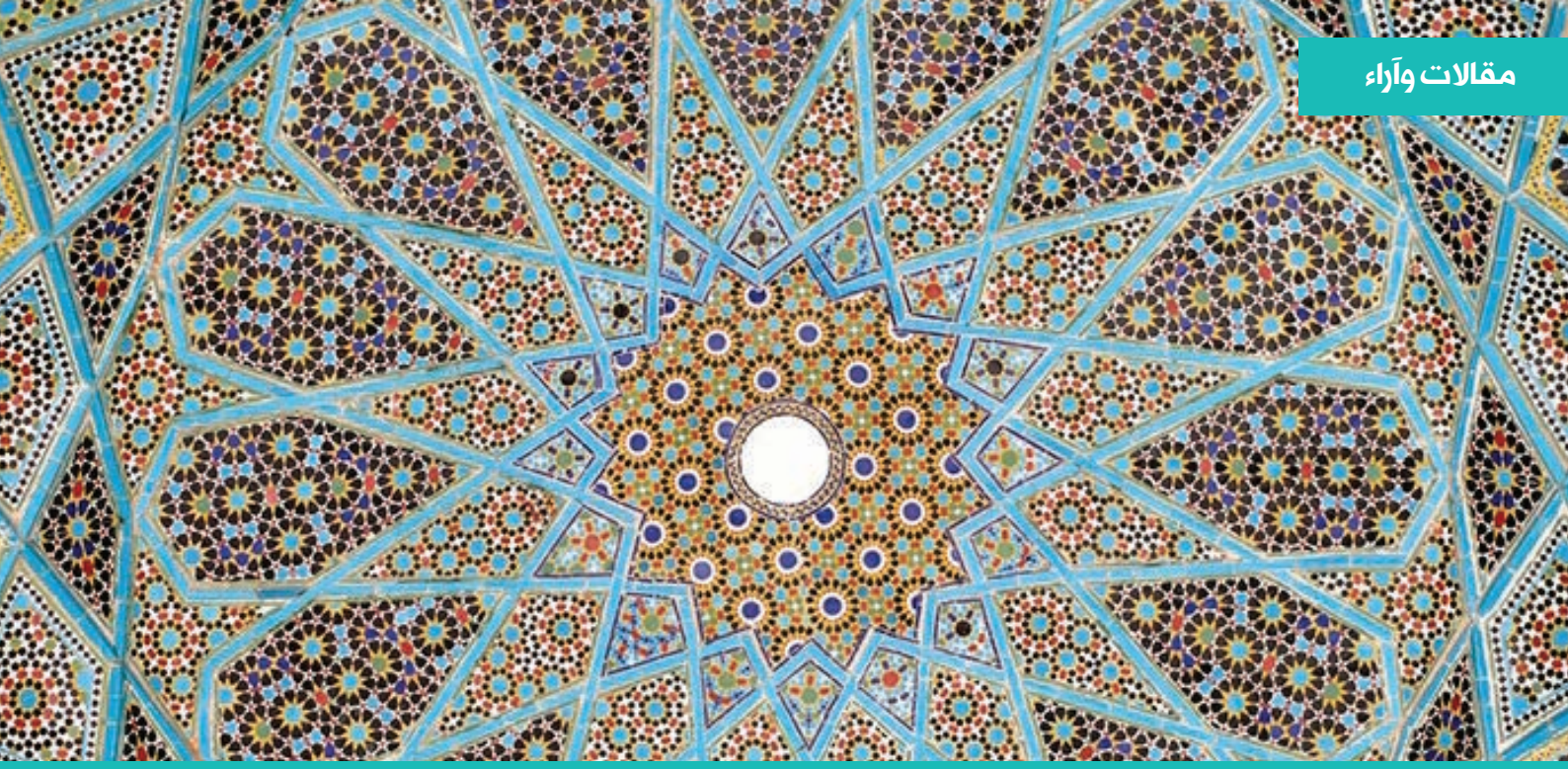

المتصوِّفة والعلم

يوسف سمرين – القدس الشريف

كان أبو تراب النَّخشبي (ت٢٤٥هـ) أحد المتصوِّفة، وقد ترجم له أبو عبد الرَّحمن السُّلمي (ت ٤١٢هـ) في (طبقات الصُّوفية) ووصفه بأنَّه «من جلَّة مشايخ خراسان والمذكورين بالعلم والفتوَّة والتَّوكل والزُّهد والورع»[١]، وهو مثال على طريقة الصُّوفية في التَّعامل مع النَّقد محرِّك العلوم - فإنَّ «ما يجعل من المرء رجل علم ليس تملُّكَه للمعرفة وللحقيقة التي لا تتزعزع، **وإنما بحثه الدَّؤوب والنَّقَّاد من دون مراعاة لأحد عن الحقيقة**»[٢]-، فروي أنَّ أبا تراب لقي أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) وسمعه يقول: «فلان ضعيف، فلانٌ ثقة فقال أبو تراب: **يا شيخ لا تغتب العلماء!**»[٣]، فقال له أحمد: «**ويحك هذا نصيحة، ليس هذا غيبة**»[٤]، ولم يكن هذا الأثر فريدًا في تعامل المتصوِّفة مع النَّقد، فقد جاء عن ابن المبارك (ت ١٨١هـ) أنَّه ضعَّف أحد الرُّواة «**فقال له بعض الصُّوفية يا أبا عبد الرحمن تغتاب؟ فقال: اسكت، إذا لم نبيِّن كيفَ يُعرف الحقُّ من الباطل؟**»[٥]، ونُقل عن شُعبة (ت١٦٠هـ) ما يشير إلى مناكفته لهؤلاء بقوله: «**اجلس بنا نغتاب في الله**»[٦]، وهو يتكلَّم في الرُّواة على ما يعدُّه هؤلاء من كلامهم في الرُّواة غيبة!

ويمكن تقدير حال علم الرِّواية لو حلَّ النَّخشبي وأمثاله من المتصوِّفة مكان هؤلاء النُّقاد كشُعبة (ت١٦٠هـ)، وابن المبارك (ت١٨١هـ)، وأحمد (ت٢٤١هـ)، فرفعوا لواء التَّورع من الكلام في الرُّواة، وجعلوا من تمييز الصَّحيح من السَّقيم غيبة للعلماء، سيَّما مع الصَّلاح الظَّاهر لبعض هؤلاء الرُّواة ممن وقعت لهم غفلة في الرِّواية، حتى قال القطَّان (ت ١٩٨هـ):

١- طبقات الصُّوفية، محمد بن الحسين السُّلَمي، حققه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطَّبعة الثَّانية: ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ، ص ١٢٤.

٢- منطق البحث العلمي، كارل بوبر، ترجمة وتقديم: محمد البغدادي، المنظمة العربية للترجمة، بدعم من مؤسسة الفكر العربي، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى: شباط (فبراير) ٢٠٠٦م، ص ٣٠٠.

٣- الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧هـ، ص ٤٥.

٤- المصدر السابق، ص ٤٥.

٥- المصدر السابق، ص ٤٥.

٦- الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، عبد بن أبي زيدٍ القيرواني، حققه: محمد أبو الأجفان، عثمان بطيخ، مؤسسة الرِّسالة - بيروت، المكتبة العتيقة - تونس، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص ١٨٠.

«**لم نرَ في الصَّالحين أكذبَ منهم في الحديث**»[٧]، وشرح ذلك مسلم بن الحَجَّاج (ت٢٦١هـ) فقال: «**يجري الكذب على لسانهم ولا يتعمَّدون الكذب**»[٨]، لذلك كانت الحاجة إلى النَّقد بديلًا عن التَّورُّع الشَّخصي الذي يغفل عن أهمية مشروع للمعرفة يسعى لأن يكون موضوعيًا بالتَّثبت مما تناقله النَّاس ويحدِّثون به في مجالسهم، وما يستدلُّون به في الحلال والحرام، قال ابن المبارك (ت ١٨١هـ) «**بيننا وبين القوم القوائم، يعني الإسناد**»[٩].

كان المشروع الذي بدأ شخصيًا باسم الورع يغفل المباحث الخارجية، وصار يتضخَّم ككرة الثَّلج زمنًا بعد زمن، وبالرِّياضة والسُّلوك رُفعت مرتبة مشايخ الطُّرقية إلى رتبة الوصي على سلوك الأتباع وعقولهم، فتعطَّل الحسُّ النَّقدي بحُجَّة متابعة الشَّيخ وإحسان الظَّن به، وبالغوا في تعظيم شيوخهم حتى قارب ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) بينهم وبين اعتقاد الإمامية في المعصوم الغائب، فقال: «يعظِّم الرَّافضة المنتظر الذي ليس لهم منه حس ولا خبر، ولا وقعوا له على عين ولا أثر، وكذلك **تعظيم الجهَّال من المتصوِّفة ونحوهم للغوث، وخاتم الأولياء، ونحو ذلك مما لا يعرفون له حقيقة**»[١٠].

وفي موضع التَّعليم يقول أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ): «**من لم يكن له شيخ يهديه قاده الشَّيطان إلى طرقه لا محالة**»[١١]، ويوصي المريد بأن يتمسك بشيخه «**تمسُّك الأعمى على شاطئ النَّهر بالقائد بحيث يفوِّض إليه الأمر بالكليَّة، ولا يخالفه في ورده ولا صدره، ولا يبقي في متابعته شيئًا ولا يذر، وليعلم أنَّ نفعه في خطأ شيخه وإن أخطأ، أكثر من نفعه من صواب نفسه لو أصاب**»[١٢]، وهكذا تصبح متابعة الشَّيخ فضيلة في نفسها حتى لو خالف الصَّواب، وهو ما بقي متوارثًا في التَّقاليد الصُّوفية، فقال أحمد زرُّوق الفاسي (ت ٨٩٩هـ): «إذا وجد المريد الشيخ وجب عليه في حقه أن ينخلع من وجوده لوجوده، فيترك عقله لعقله، وعلمه لعلمه، وديانته لديانته، ومروءته لمروءته»[١٣].

كان لهذا تأثير هائل على الموقف من العلم، وأقرَّ أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) بهذا التَّأثير، فقال: «**اعلم أنَّ ميل أهل التصوُّف إلى العلوم الإلهامية دون التَّعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنَّفه المصنِّفون والبحث عن الأقاويل والأدلَّة المذكورة، بل قالوا: الطَّريق تقديم المجاهدة ومحو الصِّفات المذمومة**»[١٤]، وقد أضَّلوا لذلك بالقول إنَّ «**الأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النُّور لا بالتَّعلم والدِّراسة والكتابة للكتب، بل بالزُّهد في الدنيا والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها**»[١٥]، مع أن النُّبوة غير مكتسبة بل هي وحي، ولا يقاس وليٌّ على نبيٍّ، وبعض المعاصرين ممن تأثر بهذه النَّظرة عبَّر عن ذلك بقوله: «**جهدُنا جهدُ أقدَامٍ، لا خطُّ أقلام**»!

وما حصَّله غير واحد من المنتسبين إلى الصُّوفية من العلم لم يكن تابعًا لمرحلة التَّصوُّف بل هو جهد خارج عن منظومة التَّصوُّف، ومن هؤلاء الغزالي نفسه الذي بدأ فقيهًا شافعيًا وطالع كتب الفلاسفة، قبل أن ينتهي متصوِّفًا، ورغم ذلك قال: «كم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، **ولو كان قد أتقن العلم من قبل** لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال»[١٦]، ونسب بعض المتأخرين إلى مالك (ت١٧٩هـ) ولا يثبتُ عنه القول: «**من تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن تفقَّه ولم يتصوَّف فقد تفسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق**»[١٧]، ورغم عدم ثبوت هذه الكلمة إلا أنَّ في مضمونها إقرارٌ بأنَّ طريق التَّفقه غير التَّصوُّف ليست نابعة منه نفسه.

ورغم الشِّعارات المعلنة بالتَّقيد بالكتاب والسُّنة، إلا أنَّ الطرق الإلهامية والكشفية المزعومة كانت رائدًا للصُّوفية، على أنَّهم طيلة تجربتهم التي امتدت لقرون من الزَّمن لم يخرجوا منها بشيء ذي بال مخالف للطَّوائف الأخرى في مجال العلوم رغم ما ادَّعوه من كشف وإلهام، فعند البحث التَّاريخي كانت تلك «الفتوحات» المزعومة لا تتجاوز السَّقف الثَّقافي لعصرهم، كاستلال أفكارِ بعض الفلاسفة مثل أفلوطين وغيره عبر وسائط مثل ابن سينا

٧- صحيح مسلم، مسلم بن حَجَّاج القشيري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ١٠.

٨ - المصدر السابق، ص ١٠.

٩ - المصدر السابق، ص ٩.

١٠- درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية: ١٤١١هـ -١٩٩١م، ج ٥، ص ٣١٥.

١١- إحياء علوم الدِّين، أبو حامد الغزالي، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، الطَّبعة الأولى: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص ٩٥٩.

١٢- المصدر السابق، ص ٩٥٩.

١٣ - مقدمة التَّصوف وحقيقته ونتائجه، أحمد زرُّوق الفاسي، بعناية: نزار حمَّادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ص ٢٨، باختصار.

١٤ - إحياء علوم الدِّين، أبو حامد الغزالي، ص ٨٩٥.

١٥ - المصدر السابق، ص ٨٩٥.

١٦ - المصدر السابق، ص ٨٩٦.

١٧ - قواعد التَّصوف، أحمد بن زرُّوق الفاسي، ص ٢٢.

وما حصَّله غير واحد من المنتسبين إلى الصُّوفية من العلم لم يكن تابعًا لمرحلة التَّصوُّف بل هو جهد خارج عن منظومة التَّصوُّف، ومن هؤلاء الغزالي نفسه الذي بدأ فقيهًا شافعيًا وطالع كتب الفلاسفة، قبل أن ينتهي متصوِّفًا

والفارابي كتلك التي ارتبطت بنظرية الفيض، والخاصَّة والعامَّة، ونبَّه ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) على هذا في نقده لأبي حامد الغزالي فقال: «إنَّ أبا حامد هو في علم المعاملة والأمر والنَّهي من جنس كلام أمثاله من أهل التَّصوف والفقه، وأما ما سمَّاه هو علم المكاشفة فكلامه فيه ألوان، فتارة يذكره بصوت أهل الفلسفة، وتارة بصوت الجهمية، وتارة هو من تصويت أهل الحديث والمعرفة، وتارة يطعن في هؤلاء»[١٨]، وقد لا يكون الواحد منهم يعلم مصدر ما ادَّعاه إذ يكون مؤمنًا بأنَّه مؤهل لتلقي العلوم عبر الفيض ثم قد «يتمثَّل في نفسه ما تقلَّده عن غيره فيظنُّه كشفًا، كما يتخيَّل النَّصراني التَّثليث الذي يعتقده وقد يرى ذلك في منامه فيظنُّه كشفًا، وإنما هو تخييل لما اعتقده، وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرِّياضة نفوسهم، فيتمثَّل لهم اعتقادهم فيظنونه كشفًا»[١٩].

فإن كان هذا في سبيل المعارف الدِّينية من عقائد وفقه، فكيف بغيرها من مناهج العلوم الحديثة، فتلك التَّركة مناقضة لمناهج العلوم وطرقها في النَّقد والتَّمييز، وحتى المعارف الشَّرعية إنما كانت تجتمع في الواحد منهم من باب الاتفاق لا الاتساق كأن يكون درس الفقه ثم تصوَّف، أما لو اتَّسق مع منهجه الصُّوفي فإنَّه يزهد في البحث والكتابة والقراءة، ويستبدلها بالرِّياضة السُّلوكية من صمت وخلوة وذِكر وصيام، ويعدُّ ذلك دربه في تحصيل المغلقات، وبابًا لكشف العويصات.

فالتَّصوُّف مسلك ذاتي، يختلف عن طريق العلوم المرتبطة بالموضوعية، ولم يكن ذلك (الذَّاتي) ساكنًا بل تطوَّر عبر قرون حتى تكاثف عليه مقالات وشطحات، أضحت عقبات في طريق المعرفة، ويشمل العلم إخضاع الطُّرق الصُّوفية نفسها للبحث العلمي النَّقدي سيَّما التَّاريخي لكشف مصادر كثير من الأفكار التي نسبوها إلى الكشف والفتح والإلهام، ومنطق العلم الذي تذمَّر منه كثير من الصُّوفية بزعمِ الجفاف الرُّوحي فيه كونَه ينزع إلى الموضوعية لم يكن له أن يراعي العواطف الذَّاتية، وقد تحوَّلت تلك الطُّرق إلى ما يعيق المعرفة وينفر من النَّقد، ويعطي الهرمية الطُّرقية حيِّزًا معرفيًا لا يثبت عند التَّحقيق.

---

١٨ - بغية المرتاد في الرَّد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتِّحاد، ابن تيمية، تحقيق: موسى بن سليمان الدَّرويش، مكتبة العلوم والحكم، المدينة-المملكة العربيَّة السُّعودية، الطَّبعة الثَّالثة: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص ٢١٧.

١٩ - الرِّسالة العرشية، ابن تيمية، المطبعة المنيرية، لصاحبها محمد منير عبده آغا الدِّمشقي بمصر، ص ٣.